وحى القرآن باللفظ

للأستاذ محمود البشبيشى

هـذا عنوان المقال الأول للأستاذ محمود أبو رية وعليه كان مدار كلمتى الأولى ، وإنى لأ لمح فى اقتصار الأستاذ فى مقاله الثانى (المنشور بعدد الرسالة الغراء رقم ٥٣٨) على كلمتى (وحى القرآن) ميلاً واضحاً إلى حصر النقاش فى دائرة لا يتجاوزها كل ذى قلب سليم ممن دعاهم الأستاذ إلى البحث فى هذا الموضوع .

ويلوح لى من خلال مقاله الثاني حرص شديد على البراءة من شوائب الشك ، وذلك عهدى به ، وهو أدرى الناس بأن البحث فى موضوع اليوم غير البحث فى مسألة الكرامات وما إليها ؛ تلك المسألة التى اشتد أوارها بينه وبين أستاذ فاضل منذ عامين بالمنصورة ، وكان لنا فيها موقف ما أظنه قد نسيه وما أحسبه إلا مثنياً عليه

ولو كان الأستاذ يحسن الظن بى ويرانى من أهل الذكر ! لأحلته إلى كتاب (الفرق الإسلامية) الذى ألفته فى نشأة هذه الفرق ومذاهبها وطبعته المكتبة التجارية منذ اثنتى عشرة سنة أو نحوها ، ولكنى أحيله على حاشية الجوهرة ، أو على الخريدة (مع إعفائه من باب الكرامات) ! أو على كتاب (الفلسفة العربية) لأستاذنا المرحوم سلطان بك محمد ، أو على كتاب (التوحيد) للمرحوم الأستاذ الشيخ حسين والى ، وهذه عدا كتاب ابن حزم فى الملل والأهواء والنحل وهو الكتاب الذى قرأه الأستاذ وأشار إليه فى المقال الثانى

وبعد فما ادعيت أن فى كلمتى الأولى بلاغاً للناس ! ولكنى قلت وما زلت أقول : إن البحث فى هذه المسألة أمر فات أوانه ، ولن يكون من ورائه جدوى تعود على الباحثين بعد ما أشبعه العلماء بحثاً وتنقيباً وما دونوه من الآراء والحجج فى كتب التوحيد والملل والنحل

وما زلت أرى أن (موضوع الوحى من القضايا التى فصلت فيها الأيام منذ عهد الرسالة) . أولَمْ يثر المشركون فى وجه صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ويتقولوا عليه ما تقولوا ويتهموه بأنه ساحر وأن الكتاب الكريم أساطير الأولين (اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) ؛ فما زال القرآن الكريم يبهرهم بنوره ويأخذ عليهم مناهج الحجة حتى آمنوا أنه ليس من كلام مخلوق ، وبالتالى آمنوا بالوحى ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وما كان ذلك منهم إلا بعد تحدٍّ شديد ولَدَدٍ فى العداوة انتهيا بهم إلى تسليم مطلق ؛ فكان هذا قضاء صريحاً من المعارضين وهم أرباب اللسن والفصاحة بأن القرآن من عند الله ؛ وبذلك (فصلت الأيام فى هذه القضية) ، حتى أثارها الباحثون على وجه آخر عند ما تفرقت مذاهبهم فى البحث . ثم استبحرت العلوم العقلية فى المحيط الإسلامى فكان من ذلك ما عده بعض الناس من مظاهر شك الباحثين ، وما كان الشك منه فى شىء ، وإنما ينحصر الخلاف بين المسلمين في دائرة محدودة أشير إليها وأجلها فيما يلى :

لا خلاف بين الباحثين فى أن القرآن الكريم دلالات (ألفاظ) ومدلولات (معانى) ، والدلالات هى مثار ذلك الخلاف العنيف الذى استحكم بين العلماء وأوذى فيه بعضهم أذى كثيراً ؛ أما المعانى فهى من متعلقات العلم الأزلى وهى قديمة قدم العلم ، أو هى بعبارة أخرى — من متعلقات صفة الكلام النفسى ، وما اختلفوا فى أن لله كلاماً وأنه كلم بعض الأنبياء . قال ابن حزم فى كتابه : الفصل فى الملل والأهواء والنحل (... أما علم الله تعالى فلم يزل ، وهو كلام الله تعالى ، وهو القرآن الكريم ، وهو غير مخلوق وليس هو غير الله تعالى أصلاً ، ومن قال إن شيئاً غير الله لم يزل — أى قديم — فقد جعل لله شريكاً) وهو بهذا يشير إلى مذهب أهل السنة ويرد على من نفوا صفات المعانى فراراً من شبهة تعدد القدماء ، وفيه وفيما يلى تعريف الكلام النفسى الذى سأل عنه الأستاذ الشيخ أبو رية (وقد ذهبت المعتزلة إلى أن كلام الله صفة فعل مخلوق . وقال أهل السنة إن كلامه هو علمه ، وإنه غير مخلوق — وهو قول الإمام أحمد بن حنبل وغيره . وقالت الأشاعرة : كلام الله صفة ذات لم تزل — أى قديمة — غير مخلوقة وهو غير الله تعالى وخلاف الله تعالى وهو غير علم الله) من كلام ابن حزم بتصرف

هذا مجمل الخلاف فى معنى الكلام النفسى ، وهو بحث فلسفى فى صفات الله ، وما كان الاختلاف على أن القرآن كلام الله أوحى إلى النبى الكريم بطرائق الوحى التى تكفل بشرحها العلماء فى مظانها المعروفة ؛ وقد أجلها الأستاذ الإمام محمد عبده فى (رسالة التوحيد) فقال : (الوحى عرفانى يجده

المرء فى نفسه مع اليقين أنه من قبل رب العالمين بواسطة أو بلا واسطة) وهذا الرأى يتمشى مع قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء) ومسألة الوحى لا تستعصى على كل ذى روية ، فالعلم الحديث وما كشف عنه من عجائب ، وما اتضح للناس من وجود الكهرباء ، وما كادوا يجزمون به من عالم الروح وحركاته وسلطانه ، كل أولئك يُقرب معنى الوحى لمن كان يبتغى الحقيقة المجردة . وقد أستطيع التوسع فى ذلك ولكنى أوثر الإيجاز فى انتظار حكم الأستاذ أبى رية أو ما يدلى به الباحثون من أهل الدراية

هذا وقد كانت الدلالات القرآنية (الألفاظ) مدار تلك المناظرات الحادة فى عهد المأمون والمعتصم والواثق وهى تلك الظاهرة الفلسفية التى انبثت فروعها ، وسميت بمحنة خلق القرآن . والخلاف فى الألفاظ راجع إلى أن المعتزلة يرونها حادثة (مخلوقة) وغيرهم يتورع فيقول بقدمها . وما أراد الفريق الأول بالخلق والحدوث أن الألفاظ من كلام بشر ، وإنما أرادوا أنها أعراض تقوم بالحادث وما قام بالحادث حادث ؛ فالألفاظ على رأيهم حادثة . وما أراد الآخرون إلا التصون ظانين أن القول بحدوث اللفظ قد يسوق من لا بصر لهم بالموضوع إلى القول بحدوث المدلولات (المعانى) وهى قديمة بقدم العلم الأزلى

وهنا يقول العلامة ابن حزم : (اللفظ المسموع هو القرآن نفسه ... وأما من أفرد السؤال عن الصوت وحروف الهجاء والخبر فكل ذلك مخلوق بلا شك)

وبما تقدم يصدق قول الأستاذ الإمام : (ليس النزاع فى الكلام اللفظي فإنه حادث باتفاق) . وأعود فأقرر أن المراد بالحدوث أن الله خلقه وأحدثه كما خلق الشمس والضوء ، وأوحاه إلى الرسول الأمين بطرق الوحى التى أجملناها . وأما قول الأستاذ الإمام (إنما النزاع فى إثبات الكلام النفسى) فراجع إلى صفة الكلام لا إلى معانى القرآن الكريم وهو يشير إلى الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة فى إثبات صفات المعانى لله تعالى وقد قدمنا بيانه . والآن نرجو من الأستاذ أن يبين للناس معنى قوله : (وحى القرآن باللفظ أمر اختلفت فيه الفرق الإسلامية) ورينا وجوه ذلك الخلاف ، ثم نسأله أن يبين لنا ما الذى أحرجه من رد المرحوم الرافعى عليه فى هذا الموضوع . وأن يشرح لنا ما وقر فى نفسه من قراءة ذلك الرد . لو تم هذا لاختصر طريق البحث وأراح المتكلمين فيه

وبعد فقد ألمع الأستاذ أبو رية فى لباقة إلى ما عده خطأ تاريخياً وقع فى كلمتى الأولى حيث قلت : « المأمون والواثق والمعتصم » ولا شك فى أن المعتصم يتقدم بداهة على الواثق ، ولكن أما كان يجدر بالأستاذ أن يحملها على سرعة الكتابة ؟ على أنى أبادر فأطمئنه على معنى « واو العطف » وحدودها ؛ فأقول له : إن الواو هنا جاءت لمطلق الجمع فلا تفيد ترتيباً وهو رأى البصريين نقله ابن عقيل فى شرحه وأطلقه ابن هشام فى « المغنى » عند بدء كلامه فى الواو ؛ قال تعالى : « يوحى إليك وإلى الذين من قبلك » وقال : « منك ومن نوح وابراهيم وموسى » وقال جل شأنه حكاية عن منكرى البعث « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » وبهذه الآية رد على الكوفيين القائلين بأن الواو للترتيب

وفى هذا القدر كفاية .

(الأسكندرية) محمود البشبيشى

إعلان

تعلن وزارة الزراعة للمرة الثانية عن بيع ثمار موالح ثمانية أفدنة بحديقة تفتيش الجيزة مركز السنطة غربية بجلسة ستنعقد بديوان التفتيش المذكور الساعة العاشرة صباح يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٣ فمن له رغبة فى الشراء معاينة الثمار والحضور فى الموعد ومعه التأمين وللوزارة الحق فى قبول أو رفض أى عطاء بدون إبداء الأسباب .

١٣٨٠